أسس التنوير

رؤية إسلامية

بقلم

الدكتور

عبد المعطي محمد بيومي

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

عميد كلية أصول الدين بالقاهرة — جامعة الأزهر

يعد التنوير مطلبا من أهم مطالب العصر ، لدى كثير من الشعوب التى تخلفت كثيراً عن ركب العلم والمدنية ، وعانت كثيراً من غياب العقل وسيطرة الأساطير والشعوذات وباتت تبحث عن حقها فى الحرية والمساواة والعدل وحظها من العلم والمدنية والرخاء .

ولا يختلف اثنان فى ضرورة التنوير فى كل عصر وفى كل مكان وأعتقد أن الشعوب كلها فى حاجة إليه مهما ازداد حظها منه أو قل .

فالشعوب المستنيرة تحتاج إليه لكى تزداد علماً ومدنية وحتى تحافظ على الأقل على ما أحرزته من تقدم إن لم تضف إليه جديدا ، والشعوب الأقل استنارة تحتاج إلى التنوير لكى تلحق بركب العالم الذى لا يقف ولا ينتظر الفقراء أو المتخلفين الذين يقبعون فى ظلمة الجهل .

ليست هذه المقدمات الضرورية محل خلاف .

ولكن الخلاف الذى يستعر فيه الجدل فى عالمنا الإسلامى إنما هو حول حقيقة التنوير الذى نحتاجه وننشده طريقا إلى مزيد من العلم والتنمية والمدنية ، التنوير الذى يستعيد مكانة الأمة الإسلامية بحضارتها الرائدة التى احتلت مقعد الإمامة لحضارة العالم ، فأثرت فيها ووجهتها نحو الحق والخير والجمال .

وفى هذه الرؤية ، نسجل فى البداية أن الذين يختلفون فى عالمنا الإسلامى حول حقيقة التنوير الذى نحتاجه لأمتنا ، إن كانوا يختلفون فى حقيقة التنوير المطلوب ، فإنهم لا يختلفون جميعا فى نواياهم الصالحة نحو رفعة أمتهم ، وعلو شأنها بين الأمم . وإن أخطأ بعضهم فى تحديد التنوير

المطلوب وهم لا يخطئون فى الغاية ولا يأملون إلا فى تحقيق الخيرية اللازمة لهذه الأمة إن سلكت طريقها إلى الحق تحقيقا لقول الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس »(١) .

والمخلصون لأمتهم الحريصون على تنويرها تنويراً صحيحاً ، يحرصون أول ما يحرصون على جمع الكلمة والاتفاق على المفهوم الأساسى لهذا التنوير والأسس التى يجب أن يقوم عليها ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يحققوا لأمتهم التنوير المنشودون أن يتفق الكل على مفهومه ليتحرك الكل لتحقيقه من باعث داخلى من أعماق النفس والرضا الكامل والإرادة التامة لتحقيق هذا التنوير ؛ لأنك ببساطة شديدة لا تستطيع أن تفرض التنوير على أحد دون أن يرضى به منهج حياة وخطة حركة ولأنهم لا يستطيعون أن ينوروا الناس رغم أنوفهم .

ولذلك كانت خطة الدعوة الإسلامية الأولى التى انبعثت من القرآن الكريم ، أن تقنع الناس أن ما جاء به الإسلام يمحو ظلام الجاهلية وظلمات التخلف ، إذ يقول تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور(٢) » .

وفى خطبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه غداة وفاة رسول الله ﷺ قال : « كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا — يريد بذلك أن يكون آخرهم — فإن يك محمد ﷺ قد مات

(١) سورة آل عمران الآية (١١٠)
(٢) سورة المائدة الآية (١٦)

فإن الله قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به . هدى الله به محمداً ﷺ »(١) يقصد القرآن .

فقد سمى عمر رضى الله عنه القرآن نوراً استنار به محمد ﷺ واهتدى به واستنار به صحابته واهتدوا رضوان الله عليهم .

وهكذا كان أصحابه ﷺ مجتمعين على كلمة سواء فى أساس التنوير وحقيقته فى كتاب الله ومبادئه .

وذلك يجعلنا أكثر استمساكا بضرورة أن يتفق دعاة التنوير على مفهومه الحقيقى والغرض منه والوسيلة المؤدية إليه ، ومن ثم يقنعوا الناس به حتى تنطلق قواهم فى تحقيقه .

أما أن يظلوا مختلفين حول ذلك فلن يتحقق تنوير على الإطلاق .

كيف نتفق على أساس التنوير وجوهره ؟

إذا كان الاتفاق على تحديد مفهوم التنوير الذى تحتاجه أمتنا أمراً ضرورياً لتنطلق قوى الأمة جمعاء لتحقيقه والالتفاف حوله ، فإننا هنا نحاول أن نجمع الناس على مفهوم واحد .

بل إننا فى محاولة مخلصة وجادة للاتفاق بين دعاة التنوير جميعاً على اختلاف نزعاتهم وتعدد مشاربهم سنختار الجانب الأساسى من نفس المفهوم الذى يعمل له دعاة التنوير المتأثرون بالثقافة الغربية والذين أشربت عقولهم المفهوم الغربى للتنوير بحكم ثقافتهم تلك ، لنجتمع جميعا على كلمة سواء مهما ، تعددت ثقافاتنا بل وأدياننا .

(١) أخرجه البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه كتاب الأحكام باب ٥١ .

سنختار هنا تحديد مهمة التنوير التى حددها الأستاذ الدكتور مراد وهبة ، ويتفق معه دعاة التنوير بلا شك .

يقول فى كتابه « مدخل إلى التنوير » : ــ

« خلاصة القول : إن مهمة التنوير الأساسية لم تكن معرفة طبيعة الإنسان ، وإنما تغيير المجتمع من أجل تغيير سلوك الإنسانية ، على أسس عقلانية ومادية »(١) .

فهدف التنوير عند الجميع إذن هو تغيير المجتمع . ومع تحفظنا على قول الدكتور مراد وهبة أن يكون هذا التغيير على أسس مادية ، فإن الهدف هو تغيير المجتمع باقرار سلطان العقل وتحريره فإن الأسس المادية تبدو هامشية حتى فى كلامه إذ يقول : « إن ثمة فجوة حضارية بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة ليس فى الإمكان عبورها من غير مرورها بمرحلتين :

أحداهما : إقرار سلطان العقل .

والأخرى : التزام العقل بتغيير الواقع لصالح الجماهير »(٢) .

ولذا فالسبيل إلى التنوير إذن هو تحرير العقل .

ويستشهد الدكتور مراد وهبه بما قاله هنا المفكر المسلم الجزائرى مالك بن نبى فى كتابه « شروط النهضة » ، مامفاده أن ثمة شرطين للنهضة : شرط سلبى هو تدمير الانحلال ، وهذا ماقام به الأستاذ الإمام محمد عبده ، والشرط الثانى تحديد منهاج جديد للتفكير .

(١) د . مراد وهبة . مدخل إلى التنوير . دار العالم الثالث . مصر . دار النهج الجديد . الكويت الطبعة الأولى ١٩٩٤ ص ٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٧ .

وإذا كنا نتفق على أن التنوير هو تغيير المجتمع عن طريق تغيير سلوك الأفراد معا ولا يتم ذلك إلا بالقضاء على التخلف ، وتقديم منهج جديد للتفكير وبناء الإنسان .

وإذا كنا سنذهب فى الاتفاق مع دعاة التنوير إلى أبعد مدى حين نتفق على أن هذا لن يتم إلا بتحرير العقل فإننا ندعو بعد ذلك إلى الاتفاق حول الوسيلة التى تحقق التنوير فى عالمنا الإسلامى أو بعبارة أخرى الوسيلة التى تحقق تحرير العقل الذى بدا عند دعاة التنوير أنه جوهر التنوير لأن العقل الحر هو الذى يقضى على التخلف فى كل مظاهره وهو الذى يضع المنهج الجديد للتفكير ، ومن ثم يضع المنهج الجديد للتغيير والنهضة فى شتى جوانبها فى السلوك والعلم والسياسة والاقتصاد .

وعند هذه الوسيلة المنشودة لتحقيق حرية العقل ، فإن السبل ستتفرق بنا . لكن عسانا بعد أن اتفقنا جميعا على سلامة النوايا ، وعلى ضرورة تحرير العقل جوهرا وغاية للتنوير الذى نأمله ، أن نتفق بعد ذلك على الوسيلة التى تحرر العقل وتحقق النهضة .

وعلى المستوى الإسلامى : فإننا ندعو إلى الاتفاق على هذه الوسيلة حبا لأمتنا ، وبعدا عن التعصب مهما كان نوعه لنلتقى على كلمة سواء ، لأن أمتنا تستحق منا أكثر من ذلك حبا وإخلاصا وتحررا من الهوى وتعففا عن الانتماء لغيرها ولغير ثقافتها الأصيلة التى يمكن أن تمدنا بأشكال من المدنية تتعامل مع العصر ولا تتخلف عنه .

ونسأل هنا بإخلاص : بم تتحقق حرية العقل ؟

ونقول : إنه يبدو أن الجواب على هذا السؤال سيتعدد ، بتعدد

الظروف والعوائق التى تعوق حرية العقل، بل إن الجواب سيتعدد بتعدد البيئات والبلاد فالظروف التى تعوق حرية العقل فى بلد ما، قد تتفق أو تختلف مع الظروف التى تعوق حرية العقل فى بلد آخر.

وقد نزيل العوائق التى تعوق حرية العقل فى بلد ما، وتنطلق النهضة ويتم التنوير بالفعل، لكننا إذا أزلنا نفس العوائق فى بلد آخر فلا تنطلق النهضة ولا يتم التنوير؛ لأن الذى يعوق حرية العقل فى هذا البلد الآخر عوائق أخرى غير العوائق التى عطلت حرية العقل فى البلد الأول.

ولذلك فالتزامنا بتحرير العقل وإزالة العوائق التى تعطله عن أداء مهمته الأسمى التى خلقه الله من أجلها يفرض علينا أن نتوجه جميعا لإزالة العوائق أيا كان نوعها، فإذا اختلفت العوائق من بلد إلى آخر ومن بيئة إلى بيئة ثانية كان توجهنا لتحرير العقل من هذه العوائق فى هذه البيئة دون غيرها. بحيث لا نفترض أن العوائق التى كانت فى بيئة ما موجودة فى بيئتنا مع أن هذه العوائق ليست موجودة عندنا، بل توجد عوائق أخرى فيكون سعينا إلى النهضة تقليداً أعمى للآخرين، مجرد تقليد شكلى لا يتنبه للفوارق بين هذه العوائق فنستغرق أعمارنا فى محاربة أشباح لا توجد عندنا، بل كانت موجودة هناك، وبذلك نظل طول أعمارنا نخبط على غير هدى!.

كيف تم التنوير فى العالم العربى؟

إذا كانت الوسائل المؤدية إلى تنوير الأمم تختلف باختلاف العوائق والموانع التى تعطل مسيرة التنوير والنهضة، فإننا سوف نستعرض هنا نماذج وأشكالا من هذه العوائق التى تعطل الأمم عن نهضتها وكيف واجه المصلحون من الرواد الأوائل فى تاريخ الإنسانية هذه العوائق.

فالعرب فى الجاهلية الأولى كانت تعوقهم عن النهضة واتباع النور الذى أنزل على رسول الله محمد ﷺ عوامل عديدة ترجع إلى الاستكبار والتقليد.

فالاستكبار هو الذى دفع الكثيرين منهم إلى أن يعجبوا أن الرسالة البالغة ذرى الشرف والرفعة جاءت على فقير معدم ليس من عظماء مكة أو الطائف، وتأنف نفوسهم وهم الشرفاء الأغنياء أن يكونوا تابعين لهذا الفقير الذى تجمع حوله الفقراء المعدمون فآمنوا برسالته. وكان كبرياؤهم يمنعهم من أن يتساووا مع هؤلاء الفقراء الذين كان بعضهم إلى الأمس القريب خدما، أو عبيدا لهؤلاء السادة، ونسوا أن السيادة والرياسة أو العبودية فى عالم الناس ليستا من الصفات الذاتية للإنسان، بل هى من الصفات الطارئة والإضافات المؤقتة فلا يدوم غنى على غناه، ولا فقير على فقره، ولا عبودية إلا لله.

ولذلك جاء القرآن يحطم هذا التخلف فى النظرة إلى الإنسان، ويبنى رؤية جديدة للكون والحياة والإنسان، قوامها النظرة الصحيحة والتفكير الحقيقى فى أن حقيقة الإنسان فى دينه وثقافته وجوهره، لا فى ماله ولا سيادته، فلا انتماء لطبقة لأنه لا توجد طبقات بل درجات متحركة تصعد بالإنسان أحيانا إلى ذرى الغنى وتنزل به أحيانا إلى دركات الفقر. فالمال غاد ورائح، ومن الظلم للإنسان أن يوزن بماله لا بجوهره ولا بعقله.

قال تعالى: «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون»(١).

(١) سورة الزخرف الآية ٣١، ٣٢.

تماما كما فعل قوم نوح من قبل عندما اشترطوا لإيمانهم أن يطرد رسول الله نوح عليه السلام هؤلاء الفقراء من حوله الذين كانوا أسبق إلى الإيمان برسالته قائلين له « ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين »(١) .

ولذلك رد عليهم نوح عليه السلام « وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين »(٢) .

وإذا كان القرآن قد اشتد فى تحطيم الاستكبار بوصفه عائقا أمام الرسالة التنويرية التى جاء بها الإسلام ، فقد اشتد أكثر فى تحطيم التقليد والتبعية للآباء والأجداد والتمسك بالموروث وعدم فحصه وتحليله ونقده والاستنامة الكريهة العاجزة إلى أوضـــاع أرستها التقاليد والعادات ورسختها فى نفوس الناس، حتى تحولت هذه التقاليد والعادات إلى تعاليم وعبادات فاختلطت التقاليد بالتعاليم والعادات بالعبادات ، وعمى على العقل العربى بحيث لم يعد قادرا على التمييز بين ماهو عادة وما هو عبادة وبين ما هو من التقاليد وما هو من التعاليم ، ومن ثم لم يعد قادرا على التفكير الصحيح .

ولذلك كانت هجمة القرآن فى مرحلة مبكرة من تاريخ نزوله على هذا

(١) سورة هود الآية ٢٧ .

(٢) سورة هود الآية ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

الوضع الشائن الذى يحول بين العقل العربى وقـــدرته على الاستقلال والفكر .

فقال تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون ، ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون »(١) .

والقرآن حين يحطم الاستكبار والتقليد بوصفه كتابا تنويريا للعقول والنفوس ، فإنه يرسى بدلهما نهجا جديدا فى التفكير فى حقيقة الإنسان ورسالته فى الحياة ، وأنه أكرم على الله أن تكون قيمته بما يملك من مال أو منصب ، بل إن قيمته بما يعتقد ويعمل ، وبما يتخلق ويعامل به الناس .

ولذلك فإنه فى الوقت الذى جعله عبد الله وحده ، لا ينبغى له أن يذل لأحد ، لأنه « لا إله إلا الله » فهو يتواضع حين يعلم أنه عبد ، ولكنه يسمو بهذه العبودية إلى أرفع درجات السمو حين يعلم أن عبوديته هذه لربه فقط، ولا يوجد ما يمكن أن يستعبد الإنسان من مال أو ولد أو وظيفة ؛ لأن كرامة الإنسان عند الله وعند الإنسان الحـــر ذاته أعلى من مال وولد ووظيفة ، لا فضل لأحد عليه إلا بتقوى الله ، فبها يتفاضل الناس « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(٢) . « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

(١) سورة البقرة الآيتين ١٧٠ ، ١٧١

(٢) سورة الحجر آية ١٣

كيف كانت حركة الفتوحات الإسلامية تنويرا ؟ :

وإذا كانت العوائق التى تعوق الأمم عن التقدم والتنوير وتحقيق النهضة تختلف من أمة إلى أمة أو تتفق بين أمة وأمة بحسب هذه العوائق نفسها ، وأن التنوير يجب أن يتجه إلى تحطيم هذه العوائق، وإرساء منهج جديد لبناء الإنسان والمجتمع على أساس تنويرى صحيح .

وقد كانت العوائق التى تقف حائلا أمام قبول التنوير الإسلامى الذى جاء به رسول الله محمد ﷺ فى بدء الدعوة كانت تعود إلى الاستكبار والتقليد اللذين كشف القرآن زيفهما وحطهما فى نفوس العرب فأقبلوا على منهج الله ، فإن الأمة الفارسية القديمة منعها من قبول منهج الله فى البداية عوائق أخرى غير العوائق التى منعت العرب .

فقد كانت عوائق الفرس دون التنوير استبداد الحكام الأكاسرة الذين حالوا دون وصول دعوة التنوير إليهم ، لأنهم كانوا يستعبدون شعوبهم ويحكمونهم بنظريات الحكم الإلهى المطلق ، ويتخذون الناس لهم عبيدا بحيث كان كسرى يملك الأرض والشعب ، ويدعى الجلالة والعظمة ويورث ملكه لبنيه من بعده ، بحيث يظل ملك العائلة مئات السنين .

هنالك كان الدافع الأكبر للفتوحات الإسلامية التى اتجهت لتحرير الشعوب ، وتحطيم حيلولة الحكام الأكاسرة دون وصول دعوة التنوير الإسلامى إلى شعوبهم حيث لم تكن قد وجدت آنذاك أجهزة البث والإعلام والاتصال الجديدة التى تصل إلى أسماع الناس عبر الأثير مجاوزة عوائق الحكام وموانع التعصب .

ولذلك واجه الإسلام هذه العوائق أمامه بتحطيمها والدعوة إلى الجهاد لتحرير الشعوب ببيان الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وعدم

القتال إلا عندما يصر هؤلاء الأكاسرة على منع المجاهدين بالكلمة والبيان ، وحينئذ لم يتبق فى ذلك الزمان أمام دعوة التنوير إلا السيف والسنان ، ولو أن المسلمين الأوائل كانوا يملكون إيصال الدعوة التنويرية بالحسنى لم يمنعوا منها لما لجأوا إلى السيف قط، وما أراقوا دما وما أخذوا أرضا، فدعوة التنوير الإسلامى إنما تقوم فى أساسها على السلم والجدال بالحسنى .

وأعتقد أن الفاتحين الأوائل لو عاشوا عصرنا الذى تستطيع أجهزة الإعلام الحديثة أن تشق أجواء الأثير تحمل رسالة الله لا يصدها كسرى، ولا يحول دونها قيصر ، لما كانت حركة الفتوحات الإسلامية على الإطلاق، إذ لم تكن ثمة حاجة إليها لدى دعاة يأمرهم دينهم بالسلم وعدم القتال إلا لمن بدأ به يقول تعالى «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»(1) .

والدليل الحاسم على أن المسلمين الأوائل لم يكونوا يريدون حربا ، أنهم كانوا قبل أن يبدأوا بقتال أمة ، كانوا يلجأون إلى كسرى أو قيصر أو مندوبيهما وقوادهما، ليسألوهما قبل القتال أن يخلوا بينهم وبين الشعوب لتعرف رسالة الله بمجرد تعريف وإعلام .

سأل «رستم» (القائد الفارسى) «ربعى بن عامر» أحد رواد المسلمين فى فتح بلاد الفرس: قال ما الذى جاء بكم إلى بلادنا ؟

قال ربعى بن عامر «جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد ، إلى عبادة الله» .

ذلك بالضبط ما كانت تعنيه حركة الفتوحات : تحطيم إذلال الإنسان لأخيه الإنسان، والقضاء على عبادة العباد من دون الله وإخراجهم من ظلمات الاستبداد إلى نور الحرية ، والانطلاق إلى الآفاق الواسعة أمام

(1) سوره البقره الآية ١٩٠ .

الإنسانية لعبادة الله وحده ، بكل ما تعنيه من الحرية والكرامة وحقوق الإنسان .

ودليل آخر لا يقل حسما عن سابقه : فقد كان المسلمون الفاتحون يرجعون عن القتال ويكفون أيديهم ، بمجرد القبول بأن يسمحوا لهم ببيان الإسلام لهم ، وسماع رسالة الله إلى العالم حتى ولو لم يقبلوها واختاروا الاستمرار على أديانهم القديمة ، فقد قال الله تعالى « لا إكراه فى الدين »(١) بل كانوا يتولون الدفاع عنهم نظير تحمل جزء من نفقات هذا الدفاع ، وهو ما سمى حينذاك بالجزية ، وكانوا إذا عجزوا عن هذا الدفاع أرجعوا ما أخذوه من هذه الجزية إلى دافعيها .

فقد ذكر الإمام أبو يوسف — صاحب الإمام أبى حنيفة — فى كتابه «الخراج» ، أن المسلمين ردو الجزية لأهل حمص حين اضطر المسلمون إلى تركها لانشغالهم بموقعة اليرموك(٢) .

ومما يختم الأدلة فى هذا المجال ، ويقيم الحجة الدامغة على دعاة التنوير أن الفاتحين المسلمين الأوائل لم يكونوا يقصدون إلا إلى إزالة العوائق أمام الأمم ومعرفة الإسلام باعتباره النور الذى أنزله الله أن هؤلاء كانوا يتركون الزارع فى زراعته ، والتاجر فى تجارته فى ولا يستنزفون خيرات البلاد المفتوحة ، ولا ينقلون شيئا منها إلى بلادهم الأصلية فى الجزيرة العربية ، كما فعلت جحافل الاستعمار فيما بعد .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .

(٢) الخراج . لأبى يوسف ص ٦٩ أنظر د . عبد الحميد متولى . الإسلام ومبادىء الحكم ص ٣٣١ منشأة المعارف . الاسكندرية بمصر .

كيف بدأ التنوير فى أوربا ؟ :

فإذا انتقلنا إلى العوائق التى كانت تعوق التنوير فى أوربا فى العصور الوسطى ، وكانت تشكل فى الوقت ذاته دوافع أساسية لإحداث التنوير .

كان العالم الإسلامى فى هذه العصور ، يعيش أقصى حالات التنوير ، يحفل بالعقل والعلم ويشيد على أساس الدين حضارة زاهرة شملت كل نواحى الحياة المدنية دون أن يشعر أحد من المسلمين بأن الدين يمثل قيدا على حرية العقل ، بل كان الدين يدفع العلم والعقل إلى خوض مجاهل العلوم الطبيعية والعقلية والدينية فى وقت واحد بالتساوى ، بعد أن فهم المسلمون أنه إذا كان كتاب الله هو الكتاب المقروء ، فان الكون بقوانينه المنبثة فيه هو كتاب الله المفتوح .

لكن أوربا فى تلك العصور كانت تعانى من ظلمات الجهالة والتخلف ، تلك التى كانت تستند على سلطتين تكبلان حرية العقل وحركة العلم هما : السلطة السياسية الحاكمة فى ذلك الوقت ، والسلطة الدينية المتحالفة معها .

كانت السلطة السياسية حينذاك تقوم على الإقطاع ، وتتوارث الملك ، وتقسم المجتمع على أساس الطبقات ، لتجعل من النبلاء الطبقة العليا ، التى يجب أن يكون من حقها وحدها أن تعلو على كل الطبقات وتتحكم فى مصائر الناس .

وكانت السلطة الدينية ممثلة فى رجال الدين يخيفون الناس من قراءة الكتب المقدسة ، ويحتكرون حق الفهم للنصوص الدينية ، ويقدمون للناس

تصوراتهم فى الحياة والعلم والدين على أنها التصورات المقدسة المعصومة، وما على الناس بمن فيهم من العلماء والفلاسفة إلا أن يخضعوا لهذه التصورات، ولا ينبغى أن يلتمسوا لأنفسهم رؤية جديدة فى الحياة والأخلاق، أو فكرة جديدة فى العلم، ولا عليهم أصلا أن يحاولوا المعرفة.

ومن الشائع فى كل المصادر التى تتحدث عن هذه الفترة المظلمة من حياة الناس فى أوربا، أن السلطة المدنية تحالفت مع السلطة الأخرى السياسية، وتقاسمت السلطتان معا مصائر الناس ومقدراتها فساند رجال الدين استبداد الحكام، وتقاسموا جميعا النفوذ والثراء والضياع الواسعة خاصة أن رجال الدين كان يجبون المزيد من الثروات والضياع الواسعة من بيع صكوك الغفران(١).

لم تكن ثمة فرصة للتنوير مع وجود هاتين السلطتين اللتين أذاقتا العلماء والفلاسفة صنوف الاضطهاد وسامتهم سوء العذاب بالإعدام تارة، والإحراق تارة أخرى، كما حدث مع جاليليو وكوبرنيقس وغيرهما.

كان لا بد إذن من تحطيم هذه العوائق الخاصة باوربا: تحطيم السلطة السياسية حينذاك وتحجيم السلطة الدينية وحصرها فى نطاق خاص هو مجال الصلات بين الإنسان وربه ومن هنا انطلقت شرارة العلمانية، أو فصل ترجمة: الدين عن الحياة، تضىء مشاعل التنوير فى أوربا.

---

(١) د. توفيق الطويل. قصة النزاع بين الدين والفلسفة. الفصل الخامس والسادس والسابع ط ٢ مكتبة مصر. الفجالة. القاهرة. وأيضا أندريه كريسون تيارات الفكر الفلسفى من القرون الوسطى حتى العصر الحديث نهاد رضا. منشورات عويدات. بيروت

ولا عجب أن الالحاد لعب دورا تقدميا فى هذه الظروف التى استغل فيها الدين استغلالا شخصيا أخرجه عن رسالته وأفقده جوهره ومضمونه وبدد رسالته فى تنوير الناس.

لكن. هل يمكن القول بتعميم هذه الظروف الخاصة فى سائر الأوقات، وكل البلدان؟ هل كانت عوائق التنوير هذه هى الموجودة بعينها فى العالم الثالث؟ حتى يمكن أن تؤخذ العلمانية سبيلا إلى التنوير فى عالمنا هذا فى عصرنا هذا؟ أم أن هناك عوائق أخرى؟.

الإسلام وحرية العقل.

إذا كنا قد ارتضينا تحديد مهمة للتنوير لهذه الأمة بأنها تغيير المجتمع سلميا من أجل تغيير سلوك الإنسانية إلى الأفضل على أسس عقلانية على مرحلتين:

إحداهما: اقرار سلطان العقل.

والأخرى: التزام العقل بتغيير الواقع لصالح الجماهير، كما ارتضينا ما اشترطه الأستاذ مالك بن نبى لتحقيق التنوير من شروط ترجع فى مجموعها إلى شرطين أساسين هما:

الشرط الأول: — وهو شرط سلبى — وهو تدمير الانحلال.

الشرط الثانى: — وهو شرط إيجابى — وهو تحديد منهاج جديد للتفكير.

وأن الشرط الأول — تدمير الانحلال — قد قام به الأستاذ الإمام محمد عبده فانه يتبقى أمام أجيالنا المعاصرة ومفكرينا المستنيرين مهمة تحديد منهاج جديد للتفكير.

ولقد ارتضينا وارتضى جميع مفكرى الأمة أن يكون أساس تحديد هذا المنهاج الجديد فى التفكير قائما على العقل ، ومن ثم يجب أن يقر سلطان العقل بعد أن يتم تحريره من كل العوائق التى تحول بينه وبين تحديد المنهج الجديد للتفكير ، ومن ثم تتحقق النهضة المأمولة لأمتنا فى هذا العصر .

وهنا تبرز لنا أهمية تحديد العوائق التى تعطل رسالة العقل وتحول دون أدائه لدوره ؛ لأنه على ضوء تحديد هذه العوائق يمكن التغلب عليها ، واطلاق العقل لاختيار وتحديد المنهج المأمول للتفكير وتحقيق التنوير .

وإذا كانت العوائق التى تمنع العقل عن أداء دوره ومن ثم تحول دون تقدم الأمة ونهضتها تختلف من أمة إلى أمة ، وتختلف فى الأمة الواحدة من زمن إلى زمن ، فإن هذه العوائق تتفق جميعا فى خاصية واحدة هى أنها تجعل الأمة فى غيبة من الوعى ومتاهة عن إدراك الطريق الصحيح لتحقيق التنوير والتقدم .

فالاستكبار والحرص على المكاسب المادية والتقليد الأعمى للآباء والأجداد فى الجاهلية العربية منعت المجتمع العربى الجاهلى من رؤية الطريق الصحيح لحرية العقل وتحديد المنهج الصحيح للفكر حتى إذا جاء الإسلام حطم هذه العوائق وأطلق حرية العقل فانطلقت معه قوى الاستنارة والتقدم على أساس صحيح .

من هنا نصل إلى ضرورة أن يتداعى المفكرون المخلصون فى هذه الأمة إلى تحديد العوائق أمام العقل لكى نرى الطريق الصحيح لنهضة الكبرى المأمولة .

ومن جانبنا فإننا لا نرى بكل اخلاص ووعى أن الإسلام لا يمثل عقبة من هذه العقبات التى تحول دون العقل أن يفكر وأن يعمل ما وسعه العمل لتحديد منهج جديد للتفكير ، بل نعتقد أن الإسلام يعطى دعما لمسيرة التنوير وانطلاقا لها ، أكثر مما يعطى أى مذهب أو أية أيديولوجية فى عالمنا المعاصر .

ذلك أن الإسلام بكل اختيار عقلى منزه عن الهوى ومبرأ من أى غرض يعطى لمسيرة التنوير شرطيها المتفق عليهما لدى كل كتاب التنوير ومفكريه .

فالإسلام يعترف بسلطان العقل ويطلق حريته ، ويهديه فى الوقت نفسه إلى تحديد منهج التفكير المستنير والمستقيم .

ولكى نكون على بينة من هذه الحقيقة واطمئنان لها بالبرهان اليقينى ، فإننا إذا تصفحنا القرآن الكريم والسنة النبوية بحثا عن موقف الإسلام من العقل لوجدنا للإسلام سبقا وتفوقا على كل العقائد والفلسفات التى عنيت باطلاق حرية العقل ودفع الإنسان بكل ملكاته العقلية والوجدانية على السواء لتحقيق التنوير الصحيح وتشكيل الحياة المتميزة .

فمنذ اللحظة الأولى للوحى حدد القرآن مهمة الرسول ﷺ نفسه وعلاقته بالعقل البشرى ، فهو لا يمثل سلطة ما على هذا العقل فلا سبيل له عليه ولا هيمنة له بوجه من الوجوه ولا وصاية ولا سيطرة ، ولا يمثل واسطة بين العقل وربه أو حائلا ، بل هو ﷺ هاد لهذا العقل ودال له على الطريق ، وبشير ونذير ، ولا يملك إلا البلاغ ، ولا يملك أن يشق عن القلوب أو يفتش الضمائر أو يكره العقل على شىء أو يجبره على اختيار من الاختيارات التى يصل إليها بحرية دون ضغط ولا إكراه .

بل إن القرآن نفسه ليس إلا بلاغا للناس، يقول تعالى: «هذا بلاغ للناس»(١)، ويقول سبحانه: «إن عليك إلا البلاغ»(٢)، ويقول تعالى: «ما على الرسول إلا البلاغ»(٣)، ويقول سبحانه: «إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر»(٤) ويقول عز وجل «لا إكراه فى الدين»(٥) ويقول تعالى: «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»(٦).

وتأسيساً على هذا الموقف الإسلامى المثالى والنادر من العقل، فإن الإسلام يمثل فى الحقيقة أقوى انطلاقة للعقل فى تاريخ الإنسانية الطويل وعبر مختلف الحضارات التى تباينت عبر العصور بحيث يصدق القول: إننا لو أردنا أن نطلق العنان للعقل ونعطيه أبعد آماد الحرية فلن نجد مثل الإسلام حافزاً ومحركاً يعطى للعقل مسئوليته ويدفعه ويؤهله لتحقيق هذه المسئولية.

تعطيل العقل تعطيل لإنسانية الإنسان:

فليس كالإسلام ديناً يحفظ للعقل حريته ويعطى له مسئوليته ويحقق له انطلاقه ويحرره من سيطرة التقليد والخرافة، ويلغى هيمنة الغير عليه أياً كان هذا الغير وأياً كان الشعار الذى يتذرع به هذا الغير.

ولقد عرفنا من القرآن الكريم أن مهمة الرسول ﷺ ليست

(١) سورة إبراهيم الآية ٥٢.
(٢) سورة الشورى الآية ٤٨.
(٣) سورة المائدة الآية ٩٩.
(٤) سورة الغاشية الآية ٢١، ٢٢.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٥٦.
(٦) سورة الكهف الآية ٧٩.

إلا بلاغا للناس، ولا يملك على عقول الناس سيطرة أو ولاية، وإنما هو عليه الصلاة والسلام بشيرا ونذيرا وما على الرسول إلا البلاغ.

ولقد ألقى القرآن على العقل الإنسانى مهمة الاختيار بين الإيمان والكفر «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»، وكلفه بمهمة التفكير وجعلها فريضة إن لم يقم بها العقل فقد سقط فى أداء مهمته وعجز عن أداء دوره، فقد قال الله تعالى: «أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين. أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء»(١)

ويقدر ما أعلى القرآن من شأن أصحاب العقول التى تقوم بدورها فى التفكير وجعلهم أولى الألباب، بقدر ما حط من شأن الذين يلغون العقل ويقيدونه بشتى أنواع القيود ويعطلونه بمختلف أنواع العلل التى تشل حركته وتفقده فعاليته.

ففى القرآن الكريم: «إن فى السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب»(٢)، وقال تعالى: «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب»(٣) وفى نفس الكتاب المبين وفى مقابل هذا الموقف يذم القرآن الذين لا يعملون عقولهم يقول تعالى: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون»(٤).

(١) سورة الأعراف الآيتين ١٨٤، ١٨٥
(٢) سورة آل عمران الآية ١٩٠
(٣) سورة الزمر الآية ١٨
(٤) سورة الأعراف الآية ١٧٦

وهكذا يصف القرآن الذين يعطلون عقولهم بأنهم كالأنعام، كالبهائم السائمة أو أضل، لأنهم يعطلون منافذ المعرفة ومصادر العلم التى تميزهم عن المواشى السائمة التى لم يزودها الله بهذه المصادر.

وبهذا يكون تعطيل العقل تعطيل للإنسانية ذاتها، وإهانة لمكانة الإنسان بين المخلوقات، وإهدار للنعمة الكبرى التى ميز الله بها الإنسان على غيره من الكائنات.

ولقد أوضح القرآن بأقوى أنواع الإيضاح أن العقبات التى تغشى على العقل وتحول دون أدائه لمهمة التفكير السليم والوصول إلى الحقيقة، إنما تكمن فى التبعية للرأى العام والخضوع للعقل الجمعى الذى يمنع العقل بصخبه ودعايته القوية أن يصل إلى لب الحقيقة، ولذا نرى الله تعالى يقول: « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ».

ذلك أن تبادل الفكرة والحوار الهادىء مع النفس أو العدد القليل أرجى لمعرفة الحقيقة من الحوار الصاخب والدعايات المتضاربة والأصوات المتقاطعة وحب الغلبة والشهرة.

بل إن القرآن الكريم يلفت النظر إلى شىء أساسى فى إطلاق حرية العقل، هو أن تقادم الرأى واستقراره وغلبته على عقول الناس وحياتهم وانتشاره بينهم وتعود الناس عليه ليس دليلا على قوته ولا حجة على أنه الحق، فربما يتعارف الناس على رأى، ويجمعون على فكرة ويفضلونها على أنها الحق الذى لا مرية فيه ولا شك، ولكنها فى داخلها تحمل فسادها فإجماع الناس على شىء ليس دليلا على صحته بل يجب النظر إلى ما فى

داخل الأفكار والآراء ذاتها من قوة بقطع النظر عن قبول الناس لها أو نفورهم منها وإعراضهم عنها.

وكثيراً ما ذم القرآن مواقف الجاهليين الذين ألغوا عقولهم بإخضاعها لما توارثوه. قال تعالى: « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون. ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون »(١).

بل إن القرآن أشار بوضوح إلى أن ذلك لم يكن عيباً فى العرب وحدهم عند نزول القرآن، بل كان عيباً مستمراً فى سائر الحضارات، وأن الذى يعوق التنوير دائماً هو الخضوع للموروث دون فحص وتمحيص. قال تعالى: « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون »(٢).

وليس يغنى عن العقل فى مفهوم الإسلام أن يتعلل إنسان بتبعيته للغير أيا كان هذا الغير، كبيراً من الكبراء أو حبراً من الأحبار، أو إماما من الأئمة، وأيا كان المجال الذى يتعلل فيه العقل فى مجال الدين أو السياسة أو الاجتماع أو الفكر. فليس يغنى فكر أحد عن أحد. وليس من أحد يحمل مهمة التفكير عن آخر. والله تعالى يقول: « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه »(٣).

---

(١) سورة البقرة الآيتان ١٧٠، ١٧١.
(٢) سورة الزخرف الآية ٢٣.
(٣) سورة الإسراء الآية ١٣.

فتقليد المخطئين فى اجتهاداتهم لايعفى من اتبعوهم ، بل على العقل حسب طاقته أن يشحذ همته لمعرفة الحقيقة فلا يغنى متبوع عن تابع ، ولا يغنى كبير عن صغير . يقول تعالى : « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب و تقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار »(١) .

وقال سبحانه : « وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء قالوا لوهدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص »(٢).

حتى الإيمان بالغيب حفظ للعقل فهو موقف تنويرى :

عرفنا من مسلمات الإسلام وبدهياته أنه يحرر العقل من سلطان الأساطير والخرافة . ويحميه من التبعية للكبراء والأحبار أو الأئمة ، أو التبعية للرأى العام دون فحص وتمحيص ودون نظر وسعى دءوب لمعرفة الحقيقة .

والإسلام حين يحدد مجالات المعرفة للإنسان والعقل الإنسانى ، يضع فى اعتباره أن يعصم العقل عن الوقوع فى الزلل أوالتردى فى مهاوى الحيرة أو التخبط فى دياجير الظلمة والتخلف .

حتى حين يمنع الإسلام العقل عن الخوض فى الغيوب التى لايملك

(١) سورة البقرة الآتيان ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢) سورة إبراهيم ٢١ .

الوصول إليها وسيلة للمعرفة ، إنما يحميه من أن يضل فى ظلمات هـذه الغيوب ، التى لاسبيل إلى معرفتها إلا بوحى منزل أو نبى مرسل .

وليس الإيمان بالغيب نقطة تحسب على الإسلام ، بل نقطة ضوء تحسب له من نواح عديدة .

— فدائرة الإيمان بالغيب دائرة ضيقة غاية الضيق فى الإسلام ، بل هى أضيق فى الإسلام من أى دين آخر .

ذلك أن دائرة الغيب فى الإسلام لاتشمل إلاذات الله والملائكة واليوم الآخر . لأن العقل إذا لم يكن مكلفا بمعرفة ذات الله وحقيقة هذه الذات فهو مكلف بمعرفة صفات الله عز وجل ، لأنها فى نطاق العقل وفى قدرته وبإمكانه أن يحيط بها علما على وجه الكمال اللائق بالله عزوجل ، مما يدفعه إلى عبادته. لأنه من المنطق الذى يحترم العقل فى الإسلام ألا يعبد معبوداً مجهولا، لأن المرء لايمكن أن يخلص العبادة لمعبود يجهله ويجهل صفاته والواجب له من الكمال والجلال ، لأن عبادة المجهول ضرب فى غياهب المجهول لاتفيد العابد شيئا ولا تغذى وجدانه بشىء ولا تمنح السكينة والرضا لنفسه بأى حال من الأحوال .

ولذلك نرى فى كثير من بلدان العالم ومجتمعاته الغنية بالمادة الفقيرة فى المعرفة الدينية الصحيحة فى معرفة صفات الله وما يجب له من الكمال أن تتردى هذه المجتمعات فى متاهات الحيرة ويفتقر أفرادها إلى السكينة النفسية والهدوء الوجدانى فتضطرب بها الأزمات النفسية العارمة والبالغة حد الكثرة لدرجة يتردى فيها الكثير من الناس فى مختلف الأعمار فى الانتحار دون عاصم من الإيمان الذى يقوم على أساس مكين من العلم بصفات الله المعبود .

وما منع الإسلام العقل أن يقتحم معرفة حقيقة الذات الإلهية إلا لأن العقل لا يملك وسيلة لمعرفتها، لا لأنها سر من الأسرار، فلا سر فى الإسلام ولا سر يمنعه الإسلام عن العقل الذى هو هبة الله، فما على العقل من سر لأنه كما قال الإمام الغزالى رضى الله عنه. العقل شرع من الداخل (داخل الإنسان). والوحى عقل من الخارج فالوحى والعقل وجهان لنعمة واحدة من الله عز وجل فهما متكاملان لا ليس فى أحدهما سر على الآخر وليس لدى أحدهما جواب ممنوع عن الآخر. ولكن الشرع يكمل العقل والعقل يفسر الشرع ويعطيه التطبيق ويمنحه الحياة بالعمل والفكر جميعا.

ولكن الإسلام رحمة بالعقل لم يكلفه معرفة حقيقة الذات الإلهية لأن وسائل العقل المعرفة إنما هى الحواس من السمع والبصر والذوق والشم واللمس، تلك التى تنقل للإنسان معلوماته عن الأشياء التى تقع عليها فبصر الإنسان ينقل للعقل المبصرات من ألوان الأشياء وأحجامها وأبعادها والسمع ينقل المسموعات من الأصوات وغيرها، واللمس ينقل الملموسات من النعومة والخشونة وأمثالها، مما يجعل العقل يعرف الأشياء ويسيطر عليها بهذه الحواس، فلما كانت ذات الله عز وجل فوق هــذه الحواس وبعيدة عن إدراكها فأنى أن يطول هذه الذات الإلهية العلية بشىء من وسائله من هذه الحواس التى لا تدرك إلا ما يحيط بها.

من هنا قال رسول الله ﷺ «تفكروا فى مصنوعاته ولا تفكروا فى ذاته» لأن مصنوعاته سبحانه هى التى تحيط بها الحواس وتدركها أما ذاته المتعالية على الحواس فلا سبيل لها عليها.

ويكفى العقل أن يصل إلى وجود هذه الذات العلية ويدرك قدرتها

وعلمها ورحمتها الواسعة، بالنظر فى مصنوعات الله من حولنا، ولا يوجد إنسان سوى ذو فطرة نقية سوية إلا ويصل من المصنوعات إلى وجود صانعها. قال سبحانه «فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى وهو على كل شىء قدير»(١).

كذلك اليوم الآخر. إن كان العقل مكلفا بالإيمان به تأسيسا على تفكير عقلى يأبى أن يكون وجود الإنسان والحياة والأشياء عبثا، أو على ما يقال يأبى أن تكون الحياة مسرحية هزلية يضرب الموت خاتمتها الأبدية بلا حياة أخروية، بحيث يتساوى فى هذا الموت الأبدى المحسنون والظالمون، وينجو الظالمون بما ظلموا وتضيع على المظلومين حقوقهم المسلوبة فى الحياة الدنيا بلا عدل يتحقق فى يوم آخر ينتصف فيه المظلومون من ظالمهم.

إن ذلك مما يتناقض مع العقل. ولذا يقول الله عز وجل «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم»(٢).

وهذا يكفى لأن يقيم العقل هذه الحياة الدنيا ومعاملاتها على أسس من العدالة والإنصاف بين الناس.

أما أن يقتحم العقل محاولا معرفة حقيقة الثواب والعقاب، أو أشكال الجنة أو النار أو الميزان الذى توزن به الأعمال فهذا ما لا سبيل إليه لأن التجربة التى هى سلاح من أسلحة العقل ووسيلة من وسائل معرفته للأشياء لا تعرف حقيقة الأشياء إلا بعد تجربتها وأنى للعقل أن يجرب نعيم الآخرة أو عذابها وهو بعد ما زال فى المرحلة الدنيا.

---

(١) سورة الروم الآية ٥٠.

(٢) سورة المؤمنون الآيتان ١١٥، ١١٦

ولذلك كان حفظ الإسلام للعقل من أن يتخبط فى معرفة حقيقة الذات الإلهية وحقيقة ألوان النعيم والعذاب الأخروية ، صيانة له ليؤدى دوره ومسئولياته التى يملك وسائلها ويقدر على معرفتها وتنظيمها فى هذه الحياة .

وذلك وجه عظيم من وجوه صيانة العقل والاحتفاظ به لمسئولياته فى هذه الحياة وهذا موقف تنويرى تقدمى بلاشك .

مجالات العقل فى الإسلام :

وإذا كان الإسلام لم يمنع العقل من البحث فى الغيوب المتعلقة بذات الله والغيوب المتعلقة باليوم الآخر يحفظ العقل من التخبط فى مجالات لا يملك العقل الوسائل لمعرفتها لأنها فوق قدرته وليست فى مستطاع الحواس الوصول إليها وهى أدوات العقل للوصول إلى أى معرفة .

وإذا كان حفظ العقل من التخبط فى مجالات حقيقة الذات العلية وحقيقة اليوم الآخر يمكن العقل من القيام بمسئولياته فيما دون ذلك من شئون الدنيا والدين .

فكل شىء بعد ذلك من موضوعات الدنيا والدين يضعه الإسلام أمام العقل ويكلفه به ، وهذا نطاق واسع لا يعز على العقل منه شىء ولا يبعد عنه شريطة أن يتحرر العقل من الهوى ومن الخضوع للأساطير والخرافات والتبعية للغير .

وهكذا يقدم الإسلام للعقل المجال الأوسع فى العلوم والتقنية والاقتصاد والسياسة والقانون ونظم الحكم والتخطيط للمجتمع بل يضع

الدين نفسه موضوعا للعقل معروضا عليه ليتفكر فيه ويتدبره ويصل فيه إلى قرار .

والقرآن الكريم نفسه وهو مستودع الإسلام وخزانته وكتابه ودستوره ومرجعه الأعلى الأول ومحتواه ، يقدم نفسه على أنه موضوع للعقل وداخل ضمن مسئولياته ، عليه أن ينظر فيه ويقرأه ، ويتدبره ليستخرج أحكامه وعقائده ومعارفه ، يقول الله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »(١) .

وصفات الله عز وجل وما يجب له من صفات الكمال والجلال موضوع للعقل، عليه أن يعلمها علم الموقن المؤمن لكى يؤسس العقل إيمانه على العلم، حتى لا يكون إيمانا هشا تعصف به رياح الشبهات، أو أعاصير القلق، وحتى يمد الإيمان صاحبه بالسكينة والرضا ، لأن الإيمان بلا علم مؤسس على العقل هو إيمان خال من السكينة وبرد الراحة ، لأنه إيمان ناشىء عن تقليد ،والعقل وحده بما يستطيع أن يحصله من علم هو الذى ينقل هذا الإيمان من التقليد إلى اليقين .

ورسالة الرسل وأشخاصهم وصفاتهم موضوع للعقل أيضاً، فكل رسول يعرض نفسه على عقول الناس بسيرته وأخلاقه ومبادئه ، ليؤسس إيمان الناس على احترام عقولهم لشخصه والثقة فى أنه يخبر عن الحق ومرسل من الحق وقد جاء بالدين الحق .

فعندما تلقى الرسول ﷺ الأمر بتبليغ رسالته صعد على جبل الصفا وجعل ينادى : يابنى هاشم . يا بنى فلان. وجعل يعدد بطون قريش ، فلما

---

(١) سورة محمد الآية ٢٤ .

اجتمعوا عليه سألهم : أرأيتم لو أخبرتكم بأن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم، ما جربنا عليك كذبا قط، قال عليه الصلاة والسلام فإنى رسول الله إليكم .

والمتأمل فى هذا العرض الأول والمبكر لرسالة الإسلام، نجده مقدمة عقلية تخاطب العقل وتلقى عليه مسئولية التفكير واتخاذ القرار والموقف المناسب وهو فى الحقيقة أشبه بمنهج التوليد السقراطى فى الفلسفة، ذلك الأسلوب الذى كان يلجأ إلى مثله سقراط الفيلسوف، إذ كان يولد الحقيقة التى يهدف إلى الوصول إليها من عقل محدثه فيجعل محدثه يعترف بلسانه بما يريده سقراط .

ولهذا استطاع ﷺ بأقرب مما كان يفعل سقراط وأسرع إلى الفطرة منه أن يجعل الذين تجمعوا حوله يعترفون بصدقه، ويؤكدون اعترافهم بأنهم ماجربوا عليه كذبا قط اعتمادا على خبرتهم بسلوكه وتجربتهم لمواقفه وأخلاقه واطمئنانهم لصدقه فى كل مايقوله ويفعله لأنه الصادق الأمين، فلما أخبرهم تأسيسا على هذه القاعدة التى ولدها من عقولهم أنه رسول الله إليهم لم يستطيعوا أن يكذبوه وإلا لوقعوا فى التناقض الذى يحيله العقل .

وهكذا أقام الرسول ﷺ دعوته منذ لحظة البدء على برهان عقلى يحترم العقل ويجعله أساسا لقيام الشرع .

ثم يأتى الشرع بعد ذلك بكل عقائده وعباداته ليتفق مع العقل ويتكامل معه لا ليناقضه أو يتعارض معه، وكما أجمع أئمة الإسلام لا يتناقض النقل الصريح مع العقل الصحيح فيهما سواء فى العبادات والدنيويات أو فى العقائد والعمليات .

فكل ماأشكل فى الظاهر مما نقل فى الشرع مما يتعارض ظاهره مع العقل إذا تحقق من نقله وطريقة هذا النقل ورجاله إذا فهم على وجه صحيح كان

العقل فى هذا الفهم عقلا سليما مبرءا من الشوائب والمؤثرات التى تميل به أو تنحرف عن الفهم الصحيح فإننا نجده موافقا للعقل .

فليس فى الإسلام ما يخالف العقل السليم أو الفهم المستقيم إذا نقل صحيحا وثبت أنه من صحيح الدين .

وذلك أساس راسخ قامت عليه الحضارة الإسلامية الزاهرة فى عصور ازدهارها وانطلقت على سواء متوازنة متسقة لا تجد فيها عقبة أمام عقلها بل يهدى الدين العقل ويسترشد العقل بالدين وينطلق فى مجالات العقيدة والعلم دون معوقات، خاصة أن الإسلام يوسع على العقل مسئولياته فى مجال الحياة بكل مناشطها من سياسة واقتصاد وعلوم وزراعة وصناعة وطب وفلك ورياضة وهندسة فكل علم وكل شئ دنيوى إنما يرده الإسلام إلى العقل .

ولا يقف الشرع من العقل فى هذه الأمور إلا موقف الهادى الدال على الخير، المرشد إلى بناء الحياة فى هذه المجالات على أساس من الحق والخير، ومادور الشرع فى الأمور الدنيوية بجانب العقل إلادور المرشد الأخلاقى الذى يحدو الإنسان لاستعمال المنجزات العقلية الإنسانية كافة، فيما ينفع الناس ويسعى إلى ابتغاء مرضاة الله دون حكر على أمة أو حجر على أحد .

وكل الخيرات الإنسانية لدى كافة الأمم فى مجال الشئون الدنيوية، إنما يتيحها الإسلام للعقل ليفيد منها دون تعصب ودون ضيق فى الأفق، أو تزمت فى التفكير «فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها» .

بما فى ذلك خبرة الرسول ﷺ نفسه فى مجال الشئون الدنيوية، فقد مر على قوم يؤبرون النخل — أى يلقحونه — فقال ﷺ ما يصنع هؤلاء

فقالوا إنهم يؤبرون النخل. فقال لو تركوه لأحسن. فعلم أنهم تركوه فقال عليه الصلاة والسلام «أنتم أعلم بشئون دنياكم».

هكذا يقوم التنوير الإسلامى على: —

— تحرير العقل وإطلاق ملكاته.

— إفساح المجال أمامه للبحث فى كل جوانب الحياة والعلم.

— دور الدين دور «المرشد العام» بحيث يكون إرشاده وهديه فى مجالات الحياة المتغيرة، بمافيها من علوم وخبرات وانظمة، بالقيم الأخلاق والمبادىء العامة، دون حجر عليه أو تقييده. فما الدين بالنسبة للعقل إلا «خطوط عامة»، ولكل عقل ولكل مجتمع خطوطه العامة التى لاتقيده بقدر ما تمثل حركته المنضبطة لتوجه الحياة والمجتمع.

أفيبقى بعد ذلك مدخل لدعاة التنوير العلمانى أن يعدلوا عن الإسلام فى توجيه الحياة إذا كان لابد لهم من خطوط عامة تنظم حركة حياتهم وحياة مجتمعهم ومن هنا يبقى التنوير الإسلامى حرية للعقل وحركة مستنيرة للحياة.

الفهرس

الموضوع — الصفحة

المقدمة — ٧—٨

١ — ثقافتنا عن المــرأة. مقال فى المنهج — ٩—٣٠
بقلم أ. د. عبد المعطى محمد بيومى

٢ — الإسلام والعولمــة — ٣١—٦٤
بقلم. أ. د. عزت على عيد عطية

٣ — الذين ضل سعيهم فى هدم السنة — ٦٥—١٠٤
بقلم. أ. د. سعد سعد جاويس

٤ — الصفات الإلهية بين العقل والنقل — ١٠٥—١٤٠
بقلم. أ د. محمد سيد أحمد المسير

٥ — دراسة هادئة حول إنكار الشفاعة — ١٤١—١٥٢
بقلم أ. د. محمد على عز العرب السباحى

٦ — الإسلام فى مواجهة شبهات الماديين — ١٥٣—١٢٦
بقلم. أ د. شوقى إبراهيم على عبد الله

٧ — إنسانية الحضارة الإسلامية — ٢٢٧—٢٥٨

الموضوع　　　　الصفحة

بقلم . أ . د . سامى عفيفى حجازى

٨ — وحدة المسلمين فى العقيدة منهجا وتطبيقا　　٢٥٩—٣١٩

بقلم . د . محمد عبد التواب السيد

٩ — الاتصال الخارجى فى عهد الخلفاء الراشدين وأثره فى الدعوة　　٣١١—٣٨٠

بقلم . د . على على على شاهين

١٠ — العقيدة الإسلامية وبناء الحضارة　　٣٨١—٤٣٢

بقلم . أ . د . أحمد عبده حمودة الجمل

١١ — دعوى تاريخية النص القرآنى تحليل وتعقيب　　٤٣٣—٤٩٦

بقلم . د . . محمد سالم أبو عاصى

١٢ — تأملات فى قضية إعجاز القرآن الكريم　　٤٩٧—٦٠٠

بقلم . د . عبد الفتاح عبد الغنى محمد إبراهيم العوارى

١٣ — نعيم القبر وعذابه بين المثبتين والنافين　　٦٠١—٦٦٩

بقلم . د . سيد فرج عبد الحليم

١٤ — موقف السنة من نكاح المتعة　　٦٧١—٦٩٨

الموضوع　　　　الصفحة

بقلم . د . والى عبد الهادى إبراهيم موسى

١٥ — الإعجاز الإلهى فى النبات وآثره فى الدعوة إلى الله　　٦٩٩—٧٣٦

بقلم . د . رمضان عبد المطلب خميس

١٦ — حقيقة الوحى ودفع الشبهات الواردة حوله　　٧٣٧—٨١٢

بقلم . د . عبد الله الشمندى عبد الله محمود العوارى

١٧ — ضوابط نقل وزراعة الأعضاء البشرية فى الشريعة الإسلامية والتشريعات العربية　　٨١٣—٨٨٠

بقلم . د . عبد الحميد إسماعيل الانصارى

١٨ — دور الصحابة والتابعين فى تأسيس علم الرجال الحديث　　٨٨١—٩٢٢

بقلم . د . محمد نصر النوسى عبد الله

١٩ — أسس التنوير رؤية إسلامية

بقلم . أ د . عبد المعطى محمد بيومى　　٩٢٣—٩٥٤